# سمات الذات الفردية والجمعية للمرأة في روايات سنان أنطون

**أ.د. علي إبراهيم محمد** **م.م. سعدون محسن سلطان**
**جامعة بابل /كلية التربية للعلوم الانسانية**

# Subjectively aspects individual and association for woman in the novels of sinan Antoon

**Ali I. Mohamed Saadon M. Sultan**
**University of Babylon / College of Education for Human Sciences**
Ali50ibrahim@gmail.com mohsadoon722@gmail.com

**Abstract**

In this research we want to highlight the novels of Sinan Anton, who tried to address the personality of the Iraqi individual in various aspects, religious, sectarian, intellectual and social relationship and existing in reality, both realistic based on the difference and coexistence imposed by the geographical spot or the acceptance of the other and mutual respect. All of these topics have been studied as they were in the work of Sinan Antoun and within the method of cultural criticism and consistency. Our research is not a study to examine the personality of the individual Iraqi social-sociological study and that included it is not a psychological-psychological study abstract and included. Is a study of the world of Sinan Anton novelist, entering in many details is a cornerstone of the cultural pillars of Iraqi society.

**key words:** Christian Self, Religious Other, Duplicity, Privacy, Women, Ideology

**الملخص:**

في هذا البحث أردنا تسليط الضوء على روايات سنان أنطون، الذي حاول أن يتناول شخصية الفرد العراقي بأطيافه المختلفة؛ الدينية والمذهبية والفكرية والاجتماعية والعلاقة القائمة في الواقع بشقيه الواقعي المبنى على الاختلاف والمعايشة التي تفرضها البقعة الجغرافية أو قبول الآخر والاحترام المتبادل. كل هذه الموضوعات جرت دراستها كما وردت في أعمال سنان أنطون وضمن منهج النقد الثقافي وأنساقه. إذن بحثنا ليس بحثا لدراسة شخصية الفرد العراقي دراسة اجتماعية– سوسيولوجي وأن تضمنت ذلك ولا هي دراسة نفسية– (سيكولوجي) مجردة وإن تضمنت ذلك. هي دراسة لعالم سنان أنطوان الروائية، دخولاً بتفاصيل كثيرة تعد ركناً أساسياً من الأركان الثقافية للمجتمع العراقي.

**الكلمات المفتاحية:** الذات المسيحية، الآخر الديني، الإزدو اجية، الخصوصية، المرأة، الأيديولوجية.

**المقدمة:**

اختار الفكر العربي مقترباً أسطورياً في تمييزه بين الرجل والمرأة، يقوم هذا التمييز على ملاحظة الفرق في تكوينهما العضوي، وعلى هذا الأساس أعطى امتيازاً للرجل على المرأة وجعلها في وضع القصور دوراً وعملاً وجسداً[١]، ونتج عن هذه المقاربات نوع من الانفصال المعرفي في كيفية التواصل وطريقة الانسجام بين الرجل والمرأة، إذ حُددت المرأة داخل المنظومة المجتمعية تحديداً صارماً، وقد يكون ذلك نابعاً عن التفسيرات والاجتهادات لبعض رجال الدين، تقيد المرأة أو قد تكون العادات والتقاليد التي سادت معتقداتها أخيلة الأجيال،

إذ نظرة الرجل للمرأة لها خصوصيتها في العراق والبلدان التي على شاكلته لأنه يعاني كبتاً وجموداً ويعيش حصاراً فكرياً واجتماعياً ودينياً، فالمشهد الثقافي الاجتماعي يعاني من تصدر الدفة في معظم الأزمان لمنظومة تفسيرات دينية تتفاوت بين دين آخر من حيث التعقيد حسب أدواتها فنجدها متصلبة بأهدافها أحيانا، مما أنتجت تلك واقعاً اجتماعياً يعاني الازدواجية بين الفكر والممارسة، وصار الفرد العربي ولا سيّما العراقي ضائعاً بين الأصالة والتراث، وبين دعوات التحرر التي تقتحمه وتثير النوازع والشكوك والعواطف حوله ولهذا لم يستطع أن يحافظ على أصالة نقية، وما استطاع أن يخلف تراثه وراءه، وما استطاع ان يوازن بين التراث وبين القيم الوافدة[١].

مما لا شك فيه أن جميع الأديان راعت المرأة ولم تهملها وأعطتها نوعاً من الحرية ولا سيّما في إبداء الرأي في كثير من الأمور، ولم تدعُ الأديان إلى فصل الرجال عن النساء اجتماعياً، وإنما دعت إلى إشراكهن في الحياة العامة مع مراعاة المبادئ التي تخصّ الحياة الاجتماعية والدينية، إلا أن هذه الحرية والمساواة اصطدمت بأرضية الواقع لتستقبلها القيم والعادات والأعراف، وتوقفها باسم السلطة الذكورية ليصبح "الرجل هو المجتمع وأن المرأة ليست سوى فئة فيه، وهي لم تحقق انجازاً كونها فئة"[٢] ولهذا دخلت المرأة في دائرة الرجل ودائرة المجتمع والدين لتسلط عليها أنواع العنف والقهر والتهميش إذ تبدو هذه الظواهر عامة في عادة ما تحصل المرأة فيه على واحدة على الأقل من صور الإهانة والقهر والتجريح في كبريائها وكرامتها ودينها وحريتها.

وبطبيعة الحال أن النص الروائي هو نص فكري محايث للأفكار والأيديولوجية الواقعية ينبع من داخل النص، ليرسم مكنون شخصية من شخصياته، ويبرز عالمها المكبوت الخاص، فالأفكار "تقتحم النص باعتبارها مكوناتها الأولية، لأنه لا يمكن بناء نص روائي إلا من خلال هذه المادة الأولية، كما أنها حين تدخل النص لا تتمتع بالقوة نفسها التي لها في الواقع"[٣] فالروائي يملك الدفة التي تحرك النص ليعكس وجهات نظر الشخصيات وفق رؤية يهدف عن طريقها بإظهار الواقع ثم العمل على تصحيحه وتغييره فالأفكار داخل النص تنهض بدور تشخيصي ذي طبيعة جمالية من أجل توليد معنى عام شمولي، وهو ما يصبوا إليه الروائي عن طريق لغة سردية يمكن عدّها "مشتركاً إشكالياً بين الأنا والآخر بمختلف أشكاله ومستوياته، وانشطاراته، والآخر أيضا بمختلف التباساته ومزاياه"[٤] وتتحدد عملية تصنيف المرأة في عمل روائي كآخر ورسم صورتها بحسب صفات خاصة وطبيعية معينة تعمل كعامل وظيفي داخل العمل السردي إلى فكرة وهدف وايديولوجيا مقصودة من الروائي تعضد مع باقي العوامل الهدف العام للسرد.

إن للمرأة حضوراً فعّالاً ومتنوعاً تنوعاً دينياً في روايات سنان أنطون وتعددت صورها فنجد في ثنايا الروايات صورة المرأة التقليدية المحافظة، وصورة المرأة الطامحة، والمتمردة، والحالمة للفكر والأيديولوجي، والمرأة المتحررة، وسنحاول تسليط الضوء على المرأة ببعدّها الآخر وسنعكس ذلك الضوء لإبراز الطبيعة

المجتمعية المهتمة بالدين دون الخوض في ماهية العقائد ومقولاتها وسنتخذ الذات المسيحية مركزاً لمحور تلك الرؤى.

**نظرة الذات المسلمة الى المرأة المسيحية**

تشكل المرجعية التاريخية الثقافية الإسلامية الغالبة في المجتمع العراقي النظرة إلى المرأة المسيحية بعين الابتذال والانفلات بحكم القياس داخل المجتمع العراقي، فما هو سائد في مخيلة الآخر للمرأة المسيحية أن تأتي صورتها بهيأة منفلتة وغير ملتزمة بقيم الشرف وضوابطه، فهل هي كذلك؟ يتبادر هكذا تساؤل إلى أذهان كثيرين ولا تحضر الإجابة إلا في التعمق في النظر إليها إلى جوانب حياتها الدينية والاجتماعية، وبحكم الإنصاف إن هذه الصورة عكسها محدودو الثقافة الذين قصروا عن فهم ما أتيح لهم أن يرونه وكذلك المغرضون الذين عادة ما يرسمون للعامة عنها صورة المرأة الخليعة، أو أنها المتمردة بلا حدود، أو أنها المتحررة بلا حدود أو أنها لا تحكمها الضوابط الاجتماعية والدينية التي تحكم المرأة المسلمة، وربما ما عمق هذا الرؤية الجهل بالآخر، إذ إنها لا تحضر في حياة كثيرين إلا عن طريق تقديمها إلى العامة بمظهرها الخارجي أو عن طريق تجارب متجزئة محدودة، إلا أن عالم الرواية من العوامل التي تساير الشخصية في عديد جوانبها ولمدة زمنية تتكشف فيها السمات الفردية والجمعية وإن كانت عوالم الروايات عوالم متخيلة إلا أنها وفي كثير منها تعد تمثيلاً وانعكاساً للواقع، وعادة ما تعكس تجارب حياتية طويلة وممتدة والتي تهيئ للروائي أكثر مما تهيئ لغيره من الأدباء بحسب طبيعة هذا النوع الأدبي، وفي نهاية الأمر تنتج فهماً عميقاً لنماذجها ومعرفتها معرفة تفصيلية دقيقة، وفي نظرة شمولية لشخصيات سنان أنطون النسوية المسيحية، نجد أن الرؤى الدينية بالنسبة لغالبهن تعد بمقياس واحدة وسيلة ضبط داخل مجتمعاتهن المختلفة، وحضوره في حياتهن الاجتماعية كبير وفاعل، ويعد المصدر الأول الذي تستند إليه الضوابط والأعراف، ويؤسس الروائي فكرة أن الدين يجب أن يصدر عن مرجعية دينية صحيحة لكي يكون القانون الأخلاقي ذا أثر في النفوس، وتعكس النصوص الصورة الأولى للمرأة المسيحية برؤية الآخر الديني(المسلم) بعين الشخصيات المسلمة بعدّها مرجعية دينية.

يصوّر الروائي البعد الديني لشخصياته النسوية المسيحية بزوايا مختلفة إذ نجد المرأة الملتزمة دينياً كشخصية (حِنّة) في رواية (يا مريم) التي تمسكت بالمداومة على الالتزام بالتعاليم الدينية والاستمرار بطقوس العبادات طيلة وجودها حتى وفاتها، يقول الراوي: "**يداها كانتا مشبوكتين بالقرب من زاوية الوسادة السفلى إلى يمين وجهها، تقبضان على مسبحة الصلاة ذات الحبات الحمر الصغيرة، التي لم تكن تفارق يدها، والتي كانت تضبط ايقاع صلواتها وأدعيتها، كانت المسبحة تنتهي بصليب فضّي صغير كان ينام بالقرب من فمها، لا شك أنها قد قبلته قبل أن تنام**"[٥] حاول الروائي أن يعمل على تغيير النظرة إلى المرأة المسيحية ويحاول توحيد النظرة إلى المرأة بكل ديانتها، إذ أراد بشخصياته بعث رسالة توحي بأن المفاهيم الموجودة في مخيال المجتمع العراقي ولا سيّما في العقود الأخيرة مغلوطة، فموضوعة المرأة العراقية في المسيحية لا تختلف عن غيرها من الموضوعات العديدة، التي تدور في فلك مشكلات المرأة المسلمة في المجتمع العراقي، التي ما تزال بحاجة إلى

فتح ملفها لأنها لم تطرق كعمل جاد، وانتماء المرأة مسيحية كانت أم مسلمة إلى مجتمع واحد يوّحد المشكلات ومضامينها، فالأوجاع واحدة والهموم واحدة والرؤى واحدة وإن اختلفت بعض التفصيلات الدقيقة، فالمجتمع المسيحي بحكم وجوده في بيئة عربية إسلامية، يخضع إلى حد كبير لعادات هذه البيئة وتقاليدها، لذا نجد الروائي يكرر في رواياته صورة المرأة الناصحة الملتزمة بعادات الدين والمجتمع والتي دائماً ما يضعها في إطار التقوى وعادة ما تراعي في سلوكياتها التقاليد المجتمعية المتبعة في كل حال ولا تذهب ضدها، تشبه شخصية الجدة في رواية (إعجام) شخصية (حنة) في رواية (يا مريم) فكلاهما لا تحيدان عن التعاليم المسيحية، يصور الروائي تمسك شخصية الجدة و تشبعها الروحي بالمفاهيم الدينية عن طريق الحوار الذي دار بينها وبين شخصية (فرات) يقول "**غضبت جدتي عندما أخبرتها عن القبلة الناقصة واتهمتني بتلفيق التهمة، ف(أبونا) ممثل المسيح على الأرض، ولا يمكن أن يغش، كانت تلك فاتحة خلافاتنا أنا وهي حول الكنيسة ورجالها، غضبت أيضاً عندما رفضت تقبيل يد المطران الذي كان يزورنا في العيد، قالت يا بني أقبل الخاتم الذي في يده، وهو رمز، وليس اليد نفسها!**"[٦].

ساد هذا الطابع من الشخصيات على جميع الروايات ففي كل رواية نجد الشخصية الناصحة التي تأخذ دور الأم الراعية والحانية إذ أن هذا الأنموذج من الشخصيات يعكس طبيعة المجتمع العراقي الذي تبرز فيه الصلة الشديدة بين الثقافة العامة والثقافة الدينية، ويصبح معها الانتماء الديني هوية جماعية مستقلة عن الاعتقاد الفردي، يتطابق فيها الثقافي والديني، حينها يمثل الدين ثقافة كاملة لشعب أو أمة أو وطن أو حضارة، ليس في كونه مجموعة نصوص وتعاليم وقيم فحسب، بل بما هو كيان مجسد اجتماعياً، ومبلور بالممارسة في أفعال وتقاليد وأنماط، أي بصيرورته نظاماً من المؤسسات والممارسات والتطورات، بغض النظر عن طريقة استيعابه وطرق التعبير عنه من طرف المؤمنين به.

يتحدد الدين بالحصيلة الاجتماعية جمعياً واجتماعياً، إذ ينشأ في النظام الثقافي للجماعة، ويضفي عليه خصائصه ويصبح من أهم العوامل البانية للهوية الثقافية الدينية، ولا شك في أن الجهل بالآخر يعطي المبررات للخيال في رسم التصورات والتي في غالب الأحيان تكون سلبية بحكم رفضه كل صورة ثقافية مختلفة أو ربما يراها مخالفة أو حتى معادية، لذلك يحاول الروائي أن يرسم تلك الصورة في خيالات الآخر الديني للذات المسيحية إذ ترفض شخصية (مها) الصورة المشوشة والمشوهة داخل مخيلة الآخر الديني التي يرونها بها، تقول: "**لا يسمع ما أسمعه ولا يرى ما أراه كل يوم، لا يمكن له أن يتخيل مشاعر امرأة وهي تتعرض لكل النظرات، النظرات التي أشعر وكأن أصحابها يلتقطون صور أشعة اجتماعية ليحددوا طبيعة مرضي ونجاستي لأنّي لست مثلهم أو من ملتهم، ولا تجيء النظرات من أعين الرجال فقط، بل حتى من النساء اللواتي ينظرن إلي ويشعرنني كأنني عاهرة لأنني لا أرتدي الحجاب، حتى بعض زميلاتي في الجامعة كن يتهامسن وينظرن إلي بطريقة مزعجة أحياناً**"[٧] الحقيقة التي يجب ذكرها إن هناك كثيراً من التعميم والتعسف في عدّ المتدينين متعصبين بالعموم، وإن معارضيهم متحررون من آفة التعصب والتطرف، وهذا بطبيعة الحال غير صحيح، ذلك

أن حملة الأفكار المسبقة والذين يقومون بتعميمها على الآخرين بدون أدلة إنما يتوزعون على أيديولوجيات واتجاهات فكرية متنوعة وإن كانت تنتمي لدين آخر، ومن جهة أخرى فإن بعض نظريات التصنيف الاجتماعي تفيد بأنّ عموم الناس تميل إلى تصنيف عالمها إلى جماعة الـ(نحن) والـ(هم) إذ يبذر هذا التصنيف بذور المحاباة والتعصب للجماعة المرجعية مقابل تضخم سلبيات الجماعات الأخرى والتقليل من ايجابياتها، وربما يكون مجرد الانتماء إلى جماعة معينة في ظروف الاحتدام والصراع والنزاع واثبات الهوية والتنافس سبباً كافياً لظهور التعصب والتطرف ضد الجماعة الأخرى، ويتقصد الروائي إظهار هذا الطابع من التعصب على شخصياته خصوصاً بعد طفح التدُّين الغرضي والذي يوجّه منتميه نحو دين يعمل على تحقيق أشياء ذات قيمة دنيوية أو منفعة سياسية أو اقتصادية، وقد تنحصر مظاهر التدّين فيه في الدائرة السلوكية التي تقتصر على أداء الطقوس والعبادات دون معرفة كافية بأصول الدين، ويحقق لصاحبه مكانة اجتماعية أو وظيفية أو اعتبارية، وفي الوقت ذاته تقصي الآخر عن دائرة الرضا والقبول، وتدخله تحت مجهر الدونية والازدراء وهو ما تلمسته (مها) من نظرة المجتمع ذي الغالبية المسلمة والذي تأثر كثيراً بعوامل الهيمنة والمخلوطة بمد إسلامي مغرض في كثير من جوانبه واتجاهاته، يسود هذا المد عند أغلب أفراده التدين العاطفي يصطبغ بسلوك عاطفي جارف دون أن يمتلك المعرفة الدينية الكافية، ما يجعله غير قادر على الحوار وغير متقبل بتاتاً للآخر يغلب على نمط هذا التدّين تدّين سطحي حماسي، وقد يتأثر ويعتمد السلوك الفردي على النمط الجمعي الغالب، وتتغلغل وتتداخل الذاكرة الجمعية والذاكرة الفردية الواحدة منها مع الأخرى فـ"تتغذى الذاكرة الفردية على الذاكرة الجمعية وذلك بإتباع طريقها الخاص، بحيث تغلف الذاكرة الجمعية الذاكرة الفردية من دون أن تختلط بها"[٨] وعلى هذا الأساس تتشكل صورة الآخر الديني للمرأة المسيحية على حيلتين أو بنيتين عند عموم المجتمع "الأولى، حيلة الثقافة المسبقة التي تنتمي لها الذات والتي تحكم هذا التشكل كلياً أو جزئياً، والثانية، حيلة الذات في عملية انتقاءها لملامح صورة الآخر، فقد تنتقي عناصر سلبية وتترك عناصر إيجابية، وقد تضيف عناصر أخرى غير موجودة أصلاً لكي تجعل الصورة كما تحب وتشتهي"[٩] ولعل صورة المرأة المسيحية في مخيلة الآخر الديني يشوبها كثير من الشوائب كونها مختلفة عن الثقافة العامة للمرأة العراقية التي تغلب عليها صبغة الثقافة الإسلامية وخصوصاً في المظهر وصورة الآخر للذات المسيحية هي "نتاج وتأمل وتحليل لشخصيات متخيلة كونها شخصيات روائية، فإن من الطبيعي أن تعبر هذه الصورة، بدرجة أو بأخرى، عن رؤية الروائي نفسه"[١٠] والروائي أراد أن يجمع الهوية العراقية تحت عباءة واحدة لذلك عكس الصورة الناشزة والمبالغة في تعصبها فضلاً عن الصورة السائدة في المجتمع العراقي المسلم بغالبيته إلى المرأة المسيحية والتي ترتكز في تصورها على المواقف الأخلاقية التي تحكم على المرأة من مظهرها الخارجي المختلف بطبيعة الحال عن صورة المرأة المسلمة ولا سيّما المحجبة بحكم التأثيرات العديدة، وتتغافل في حكمها الجانب المعرفي في غالب الأحوال ومن المنصف أن لا تفسر الصورة من جانب واحد إذ إن هناك سياقين في تحديد دلالة وصورة الآخر هما: "السياق الأول معرفي وعلى ضوئه يبدو الآخر مفهوماً تكوينياً أساسياً للهوية [...]أما السياق الثاني فسياق قيمي أخلاقي

يكتسب الآخر من خلاله قيمة أو موقعاً في سلم تراتبي يكون من خلاله مقبولاً أو مرفوضاً، طيباً أو سيئاً"[١١] وفي ظل تعاقب أنظمة مجتمعية متصفة بطابع قبلي منبني في كثير من جوانبه على مرجعيات إسلامية تفضل الرجل وتُلزم المرأة الانصياع للأحكام العرفية والدينية أكثر مما تلزم الرجل، فتعفو المنظومة الاجتماعية عن أخطاء كثيرة للرجل وتقسو وتبطش مقابل أي هفوة من المرأة، وبطبيعة تلك النظرة فضلاً عن النظرة الدينية أنتج هذا عن تولّد نظرة سلبية مشحونة بالشك والريبة والانفلات للمرأة المسيحية عموماً، بل لم يقتصر الأمر على ذلك في عالم الروايات فقد تعممت تلك النظرة على الذات المسيحية بعمومها وليس فقط على المرأة إذ نجد في رواية (إعجام) إباحة جسد شخصية (فرات) من قبل أحد رجال السلطة (أبو خالد) واصفه بالنعومة التي لا تتوافق مع طبيعة المجتمع وقد لا يكون لذلك تمثيل واقعي وإنما نابع من مخيلة الرجل التي تصور إليه الذات المسيحية عموماً[١٢]، يعكس هذا التصور الحوار الذي دار بينهما والذي ينم عن نظرة الدونية والابتذال، يقول: "**يلّلَه غَسْلي نفسج زين! النظافة من الايمان، بس انتي كافرة أساساً!**"[١٣] فمخاطبة الرجل بلغة الأنثى يعكس التعميم والاطلاق في صورة الابتذال والإسفاف للذات المسيحية في عين الآخر الديني.

إن تصوير الروائي للشخصيات المسيحية بصورتها المحتشمة والمنضبطة تحمل رسالة خاصة إلى الآخر الديني للذات وهي ضرورة إعادة ترسم مخيلته الحاملة للأبعاد السلبية ودفع تعصبها الديني المنبني على العاطفة والتعميم بالمطلق والذي يعد عاملاً حاسماً في الحكم على تعصب أي جماعة، الذي رسم الممارسة والسلوك تجاه الآخر والموقف منه وطريقة التعامل معه، لذا نجد عالم الروايات يجود بالشخصيات النسوية والمواقف التي تعكس تلك الشخصيات المداومة على الالتزام بالتعاليم الدينية المسيحية لأنها ترى في الدين غاية بحد ذاته وتسلم فيها تلك الشخصيات نفسها طوعاً لإرادة الله سعياً لكسب الآخرة[١٤].

**نظرة الذات المسيحية الى المرأة المسلمة**

إن واحداً من أهم أهداف الروائي في ثنايا السرد تبرئة المرأة المسيحية من التهم الموجهة إليها من قبل المجتمع، ذلك جعله يسلط جهده في إبراز الرؤية المسلمة للذات المسيحية النسوية ونتج عن ذلك نزراً يسيراً من الشواهد العاكسة للصورة الثانية والتي تتمثل بالنظرة المسيحية للمرأة المسلمة إلا أن ذلك لا يعني انعدامها بل قلتها نسبياً، ومن أبرز تلك الرؤى هي وجهة نظر شخصية (مها) للذوات المسلمة والتي ترى فيها آخرَ عدوانياً يحاولً تهميشها وإقصاءها ومحوها بممارسة شتى أنواع العدوان، إذ أصبحت الذات المسلمة عندها ذاتاً وحشية مُدمِّرةً لا إنسانية فقد انتقلت العلاقة بينهما من مرحلة التعايش بسلام إلى مرحلة العدوان والصراع والنزاع، إذ تجد (مها) أن هدف الآخر هو التخلص منها بأي وسيلة، إذ تربط الآخر الديني بهدف واحد يتمثل بنفي الذات المسيحية وترى أن ذلك الآخر لا يتوارى عن استعمال أي وسيلة من وسائل الإقصاء والتهميش والإذلال، تقول: "**أراني نائمة على سرير في غرفة في مستشفى نظيف، السقوف عالية وبيضاء بلون الجدران، صدرية الطبيبة وحجابها وملابس الممرضات اللواتي يقفن حول السرير، وكلهن محجبات [...] الممرضات يبتسمن دون أن**

**تتحرك واحدة منهن لمساعدتي، أجلس على حافة السرير لكنني لا أحس بالأرض تحتي، تختفي الطبيبة والممرضات، وعندما أنظر إلى الأسفل لا أرى شيئاً سوى الظلام.**[١٥]

[١] ينظر، المرأة العربية في منظور الدين والواقع، جمانة طه، اتحاد الكتاب العرب، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنيت، ١٦: httb:\\www.awu-dam.oros
[٢] صوت الأنثى، نازك الأعرجي، دار الأهالي، (د،ط)، ١٩٧٩: ١٠.
[٣] النقد الروائي والايديولوجيات - من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، حميد الحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩: ٢٦.
[٤] سرد الآخر – الأنا والآخر عبر اللغة السردية، صلاح صلاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٣: ٥٠.
[٥] يا مريم- رواية، سنلن أنطون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠١٤: ١٥.
[٦] إعجام- رواية، سنان أنطون، منشورات الجمل، بيروت- بغداد، ط٢، ٢٠١٣: ١٠٢ – ١٠٣.
[٧] يا مريم: ١١٠.
[٨] سوسيولوجيا الدين، دانييل هيريفه وجان بول ويلام، تر: درويش الحلوجي، سلسلة المشروع القومي للترجمة، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥: ٢٧٨ – ٢٧٩.
[٩] صورة الآخر في شعر المتنبي، محمد الخبّاز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ٢٦.
[١٠] الرواية العربية المعاصرة والآخر – دراسات أدبية مقارنة، د.نجم عبد الله كاظم، عالم الكتب الحديث، اربد – الأردن، ط١، ٢٠٠٧: ٦٦.
[١١] الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨: ٣٧.
[١٢] ينظر،إعجام: ٣٦ -٣٨.
[١٣] إعجام: ٤٣.
[١٤] ينظر، يا مريم: ١٣، ١٥، ١٦، ١٩، ٢٠، ٢١، ٥٠، ٩٨، ١٢٢، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٧. وينظر، إعجام: ٢٢، ٣٢، ٧٢، ٨١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧.
[١٥] يا مريم: ١٠٦، ١٠٧.

تعتمد عملية تفسير شخصية (مها) للحدث على مبدأ القصدية أو الارادية[١]، إذ ينعكس تحليلها عن تأمل وفهم الذات نفسها فهي تفهم ما يقع ويظهر ويحدث استناداً إلى قيام الوعي برصد الموقف والتقاط المجال برمته وحدس التجارب السيكيولوجية[٢] الخاصة بذاتها فإنها وبتأثير الأحداث العصيبة التي مرّت بها ولا سيّما من الآخر المسلم وضعت جميع الذوات المسلمة في بوتقة واحدة وأيضا أنتجت منها شخصية مأزومة نفسياً لم تضع مدخلاً إلى حياتها لأقرب الناس إليها فكيف بالآخر الذي ترى فيه عدواً همجياً لا يعرف الرحمة[٣] وتجد في صراعها معه صراع وجود ولعل في قولها: "أجلس على حافة السرير" إشارة إلى كونها لم تعد تطيق العيش في البلد عموماً بسبب ذلك الآخر ووجودها فيه على وشك النهاية زماناً ومكاناً، فالعلاقة بينهما في مقياسها وصلت إلى حدّ النهايات إذ وصلت إلى صراع مسلح دموي وتجد فيها أن الطرف الآخر يريد فرض هيمنته وسطوته، تحكمه ثقافة إسلامية ومعتقدات روحية تترسخ في ذهنه العدوانية للمسيح ولعل ما يعمق تلك الروحية الحروب الصليبية فضلاً عن مراحل الاحتلال في العصور الحديثة، لهذا لم تتقبل (مها) المرأة المسلمة إذ تجاهلت وجودها فلم تقترن بعلاقة طيبة في المجتمع مع أي منهن إذ كانت ترى أن العلاقة بينهن دائماً سلبية ولا يمكن أن تكون ايجابية قائمة على المحبة والصداقة والتعايش بسلم وسلام، بسبب الكراهية والعدوانية وهذا ما جسدته رواية (يا مريم) بكل مراحلها المتصلة بشخصية (مها) ففي طيلة تواجدها في عالم السرد فهي تحمل صورة عدائية للآخر الديني المسلم منبنية على الاحتقار والازدراء النبذ[٤].

تذهب الدراسات الدينية في اتجاه تقديم تفسيرات خاصة للنصوص والأحداث الدينية بمعزل عن سياقها التاريخي والاجتماعي، في حين يسعى المنطلق الثقافي السوسيولوجي إلى تحليل السلوك الديني في الحياة اليومية وما يستند إليه من تفسيرات خاصة للنصوص الدينية في السياق الاجتماعي والتاريخي[٥]، لذا سينبغي في رصد الشخصيات وفق تحليلها للدين بوصفه نسقاً كاملاً يمدهم بحوافز ودوافع وأنماط ثقافية لممارسات ذات دلالة ومعنى خاص بالشخصية، إذ نسلط الضوء على الواقع المعيشي وما تعتمد عليه الشخصيات من معتقدات وتفسيرات ورؤى من منطلق موقع تلك الشخصية من البنية الاجتماعية، ومثل حال انقسام الرؤى عند شخصيات أنطون المسيحية في تقبّل الآخر الديني انقسمت الرؤى ذاتها في تقبل المرأة المسلمة فغير النظرة العدوانية التي تلمسناها نجد صورة أخرى عند الذات المسيحية ترسمها شخصية (يوسف) ومحاولة ارتباطه بشخصية (دلال) زميلته في العمل والتي تحولت مع مرور الزمن إلى حبيبته إذ قفز (يوسف) على الحواجز بعد معرفة الآخر الديني والتقرب إليه (المرأة المسلمة) عن طريق التواصل الودي المستمر الذي جاء عن قابليته للتثاقف والأخذ من ثقافة الآخر فقد لعبت البنية الثقافية لشخصية (يوسف) المنبنية على تقبل الآخر دوراً بارزاً في الأكتشاف والمعرفة، وهذه المعرفة ليست فقط ايجابية تقوم على الاحترام والتقدير بل تقوم أيضاً على تكريس المواقف الايجابية تجاه الآخر الثقافي والديني حتى تصل إلى مرحلة الشروع بالزواج وتجاوز مرحلة أن هذا يضادني أو يختلف معي، إذ لم يتأثر (يوسف) بالآخرين مع أن غالبية الناس تقوم ردود أفعالهم على "تفسير ما فعله الآخر لها أو أمامها وحتى أبسط ظواهر القسر الاجتماعي تتصل بمراقبة ما يفعله الناس"[٦] فالفرق ليس بالآخر فالآخر

موجود بل الفرق في التعامل مع ذلك الآخر، فـ(يوسف) كان على استعداد بالتخلي عن دينه من أجل ذلك الارتباط: "**جنّ يوسف بحبها إلى حد أنه كان مستعداً لأن يخاطر بكل شيء من أجل أن يكون معها، فكان مستعداً أن يشهر إسلامه إذا اقتضى الأمر، فالتوقيع على ورقة أو التلفظ بعدة كلمات لم يكن يعني الكثير**"[٧] فرغبة (يوسف) بالارتباط بـ(دلال) أقوى من الضابط الديني إذ إنها غيرت نظرته لكثير من القضايا في حياته ورسمت انعكاسات عميقة على حياته العاطفية والفكرية وأيضا الدينية، فهو لا يجد في تغيير الدين المتمثل عنده ببضعة كلمات معادلاً لتأثير شخصية (دلال) في حياته، إذ يرى فيها الحياة وأنها ليست المتعة الجسدية، فقد أصبحت حاجة روحية وحرمانه منها يؤدي إلى معاناة كبيرة، تؤثر فيه وفي مواقفه إزاء نفسه والحياة عموماً، وقد حاول (يوسف) التخلص من العادات والأحكام الدينية والتقاليد المعوقة لحركته في التقرب من (دلال)، ولنا أن نشير في أن هذا التقدم في محاولة نسق الحدود بين الذات والآخر الديني جاء نتيجة فهم (يوسف)الثقافية وبنيته، فهو يرى في الهوية الوطنية حاضناً وليس الهويات الفرعية والتي قد تتقاطع في مفاهيمها في بعض الأحوال ولا شك في أن (دلال) تتماثل مع (يوسف) في هذه الرؤية، التي ترى في تبدل نظرة المجتمع إلى المرأة مع التقدم الاجتماعي الذي أرسى قيماً جديدة خطّ للمرأة بدايات التحرر مع حركة تحرر المجتمع، والنأي شيئاً فشيئاً عن التقاليد الاجتماعية والدينية المعبرة عن خلاصة التجارب والأفكار الإنسانية الجمعية التي اتفق عليها الناس في المجتمع وتناقلتها الأجيال، وتكون هذه التقاليد والأعراف في معظم الحالات محكمة الترابط بين العصور، وإن حدوث أي تغيير فيها أمر نسبي دخيل الحدوث[٨] ومما تجدر الإشارة إليه أن في مجتمعنا العراقي امتزاج الأعراف الموروثة والتقاليد مع التعاليم الدينية، لذا فقد تختلف درجة التمسك بها كون المجتمع مدنياً أو ريفياً أو بدوياً، ولهذا تبدو النظرة إلى الآخر الديني متفاوتة نسبياً وعليه جاءت صوره عند الذات المسيحية بأشكال متنوعة، وتأسيس نصوص سنان أنطون بعمومها هي إحدى الدعوات الداعية إلى التفاعل والتعايش مع الآخر ونبذ الإقصاء والتهميش.

يعد الدين مكوناً رئيساً من مكونات الذات، وأكثر الانتماءات المؤثرة في بنية المشاعر الجماعية فهو مرتبط بجميع أمور الحياة وأيضا مرتبط بأمور الحياة الآخرة، يمنح الدين الذات الشعور بالتميز من الآخر "ولعلّ قبول الآخر في المجال الديني أصعب منه في المجالات الأخرى"[٩] ومسألة الزواج أشد حساسية من باقي العلاقات، بسبب إدراك الاختلاف المتعمق في ثقافة المجتمع العراقي دينياً واجتماعياً بين الذات المسيحية والآخر الديني المسلم، نجد أن مشروع علاقة الزواج بين شخصيتي (يوسف) و(دلال) انهار من أول ريح عصفت عليه، يقول الراوي: "**عرض عليها أن يتزوجا وفاتحت أباها بالموضوع لكنه غضب، ورفض رفضاً قاطعاً بعد أن سمع اجابتها على سؤالين، قال لها: إنه لن يوافق على زواجها منه حتى لو أشهر يوسف إسلامه، فهو لا يناسبها إطلاقاً لأنه أكبر منها بكثير وليست لديه شهادة، وأستغرب أن تكون بهذه السذاجة، لم تكن دراسة أبيها في أمريكا قد غيّرت تفكيره المتحجر، أما يوسف فلم يفاتح حنّة، فقد كان يعرف رأيها**

**مسبقاً بالزواج من غير المسيحيين مما كانت تقول عنه أولئك الذين ويقترفون الفعل المشين، وهو الرفض القاطع**"[١٠].

إنّ العلاقة بين الرجل والمرأة على الصعيد الواقعي عنوان كبير لإشكاليات الاندماج الاجتماعي والديني والقومي ورصد هذه العلاقة في روايات أنطون دليلٌ على صورة الصراع في الواقع وتطوراته، على الرغم من أن عرض الروائي للأحداث ليست بالصورة ذاتها في الواقع، بل إنها اكتشاف وتصوير خلاَّق فالرواية كما هو الحال مع باقي الأشكال الأدبية يتمثل في الواقع أو يعبّر عنه، أو بأبسط أحوالها تتأثر به في معالجة قضاياه وموضوعاته عن طريق رسمها للشخصيات في تعبيرها عن المواقف خصوصاً ما يتصل منها بالآخر، وبطبيعة الحال تأتي الصورة أكثر وضوح حينما تكون أسقاطاً لتجربة الروائي الشخصية كونه منتمياً لأقلية دينية مسيحية في بلد ذي غالبية مسلمة، وتكتشف دقة الملمح النمطية في الحياة وتكون أكثر تعبيراً عن جوهر الصراعات والمواقف، إذ يكشف النص عن أنساق مجتمعية حيال الارتباط بالآخر الديني إذ ترى شخصية (يوسف) أن والد دلال متمسك بقيمه الدينية والاجتماعية التي تنشأ عليها على الرغم من تأثره بالثقافة الغربية في أمريكا بحكم دراسته فيها، الأمر ذاته وربما يزداد تصلباً نجده عند الذات المسيحية ولا سيّما إن كانت تتماز بالتدّين نتلمسه في ردة فعل (حنّة) المتوقعة ومرد ذلك إلى أن أخطر مظاهر النزاع والاختلاف والصراع في مسألة الهويات هو التوظيف الديني لأن ذلك سيغدو تناحراً وتصارعاً وتمايزاً لا حلّ له إذا أراد كل طرف كما هو موقف (حنّة) مثلاً، وهذا يعني تعريض المجتمع للتشظي والتشتت إلى جماعات وجزيئات وهو ما يتعارض مع وحدة المجتمع، يبدو أن تصوير الروائي لعدم التوافق في العلاقات بين الجهات المتباينة دينياً ليس الهدف منه بيان الصور السلبية للعلاقات المريضة المأزومة ولا لكثرتها أو قلتها بقدر ما تحمل من رؤية واقعية متشعبة بالشحن والطموحات، فطموح شخصيتي (يوسف) و(دلال) يرسمه الروائي في رؤيته في كون البلد مكون من قوميات وأديان لها الحقوق والواجبات ذاتها فوجود هوية كبرى لا يعني هضم حقوق الهويات الصغرى – ما لم يتعارض مع الشرائع الدينية – إلا إذا أُريد تعويم الحدود الفاصلة بين الهويات، وينطبق الأمر على الهوية الإسلامية في حين يتطلب الأمر احترام الهوية المسيحية مثلما هي الأديان والتكوينات الأخرى دينية كانت أم قومية، من هذا الجانب جاء تصوير الروائي لاصطدام رغبة الشخصيات بالمفاهيم الدينية والاجتماعية، يقول راوي رواية (يا مريم): "**كان زواجه من دلال، لو ترجم من رغبة وحلم إلى حقيقة، سيكسر قلب حنّة وقد يقتلها ويمزق العائلة بأكملها، وبالرغم من الرفض على الجانبين عرض يوسف على دلال أن يتزوجا سراً، فكرت لعدة أيام وبكت كثيراً عندما قالت له ورأسها على صدره (احبك، بس ما أكدر أعوف عائلتي وأهلي وأعيش خارج المجتمع)**"[١١] على الرغم من انتماء الروائي للديانة المسيحية إلا أن ذلك لم يمنعه من الالتفات إلى قضايا مجتمعية وإلقاء الضوء على بعض الآفات الاجتماعية، إذ صوّب سهام النقد على السلبي من العادات والتقاليد ومنها النظرة الدونية من الذات المسيحية إلى المرأة المسلمة إذ تجد في اقتران (يوسف) بالزواج من (دلال) الفعل المشين الذي قد يؤدي إلى قتلها وربما يقضي على العائلة بعمومها، وقد أُسِّسَت رؤيتها على أعمدة دينية ترى أن الدين

الإسلامي برمته لا يتمتع بالشرعية، وواقعها هي لا تنظر إلى المرأة المسلمة بعين الود والإعلاء خصوصاً إن كان الأمر مقترن بموضوع الزواج، إن نظرة شاملة لرؤى الشخصيات المسيحية إلى المرأة المسلمة تشير إلى صعوبة الاندماج والتماهي لاسيّما في العقود الأخيرة بالأخص في مرحلة ما بعد الاحتلال، ولعل من الأهداف والنوايا الحسنة في السرد للروائي سنان أنطون وغيره من الأدباء هو الرغبة في تطور الهويات الفرعية ومنها المسيحية وذلك يأتي عن طريق التفاعل والتواصل مع الهويات الأخرى، فالأساس في التعايش المشترك الإنساني هو الموطنة التي تتطلب مواطنين أحراراً، تكون مواطنتهم عابرة للأثنيات والطوائف والأديان والجهويات، وفي إطار وحدة كيانية متعددة وموحدة في الآن ذاته.

**الهوامش**

[١] ينظر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، آرفنج زاتلين، تر: محمد عودة وآخرون، دار السلاسل، الكويت، ١٩٨٩: ٢٤٥.
[٢] ينظر، المدخل إلى علم الاجتماع، قباري محمد إسماعيل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٩: ٣٤٣.
[٣] ينظر، يا مريم: ١٤١.
[٤] ينظر، يامريم: ١٢٩.
[٥] ينظر، تأويل الثقافات، كليفورد غيرتز، تر: محمد بدوي، مر: بولس وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩: ٢٢٧.
[٦] علم النفس – دراسة الحواس الداخلية عبر السلوك اليومي للإنسان، هاني يحيى نصري، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، حارة حريك، ٢٠٠١: ٢٢٨.
[٧] يا مريم: ٦٦.
[٨] ينظر، المرأة العراقية المعاصرة، عبد الرحمن سليمان الدوريندي، دار البصر للنشر، بغداد، ٢٠٠٢: ٢٢٧.
[٩] قبول الآخر، د. ميلاد حنا، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٨: ٢٧.
[١٠] يا مريم: ٦٦.
[١١] يا مريم: ٦٦.